

الفصل الثالث

الشخصية الماليزية

يمتاز الماليزيون عمومًا بأخلاقهم الطيبة فالتواضع والبساطة صفة ظاهرة جدًا عليهم فتجد الدكتور الجامعي المرموق المعروف في أنحاء العالم يتعامل معك بتواضع وبساطة لا فرق بينه وبين أقل الناس اجتماعيًا وماليًا، وقد تسأله عن وظيفته فلا يزيد على كلمة «موظف» وقد يكون مسئولًا في إحدى الوزارات أو ذا منصب، وحتى رجل الشرطة يتعامل مع المواطنين على أنه موظف من الدولة مكلف بتوفير الأمن للمواطنين فلا يتعالى عليهم ولا يظن أنه في طبقة أرفع منهم، بل تستشعر من أخلاقه وتعامله وكأنه موظف استقبال في أحد الفنادق الفاخرة، ومع ذلك فالمواطنون يلتزمون بالقانون ولا يجروون على مخالفته ويرهبون جانب الشرطة، فالمواطن يعلم أنه لن يجايبه أحد إذا انتهك القوانين.

والمدرس يتعامل مع الطالب بروح أبوية تمامًا لا مجال فيها للقهرة ولا للعسف، لدرجة قد نحسبها نحن تسيبًا وضعفًا في الشخصية، وليس عيبًا أن يُسأل الطالب سؤالًا فيستعين بصديق لمعرفة الإجابة ولا يعتبرون ذلك غشًا بل يكفي أنه قد عرف المعلومة وهو المهم، فالطالب قد يتكلم أو يضحك أثناء شرح

المعلم أو يجلس وظهره للمعلم، ولا أحد ينكر عليه ما يفعل، فلما تكلمت معهم عن هذه الملاحظة قال لي أحد الأساتذة: «وهل يطيق الطفل أن يجلس طوال مدة اليوم الدراسي جالساً في مقعده ووجهه في السبورة منصتاً لشرح المعلم؟؟!! هذه حياة عسكرية» (دولتكم دولة عسكرية)، فالطالب يجب أن يأخذ حريته كي يستطيع أن يتحمل ثقل الدراسة، ويشعر بأريحية وكأنه في بيته، فتصبح المدرسة هي بيته الثاني حقيقة لا مجازاً، فالطالب لا يشعر بالكبت والتأفف والإذلال أثناء وجوده في الحصة، ولا ينتظر فترة الخمس دقائق بين كل حصة وأخرى كي يفرغ طاقته المكبوتة في اللعب والصخب، فمدرس الحصة يدخل في وقته بالضبط، ويخرج في وقته بالضبط.

وقد حضرت بنفسني عدة حصص بمدارس مختلفة في طول البلاد وعرضها فرأيت ذلك وأكثر، فالطلبة شديداً الامتثال لما يقوله المعلم، ويحترمون الأساتذة جداً ويقبلون أيديهم وهم يصافحونهم - طبعاً لا يوجد مجتمع مثالي ولا طلبة مثاليين ولكن هناك من هو أفضل من غيره وفيه مميزات لا توجد في غيره - والمدارس الداخلية بعضها بلا أسوار أصلاً!!! وقد يمضي الطلبة فيها أسابيع عدة بعيدون عن بيوتهم، فهناك أنشطة رياضية وترفيهية أثناء اليوم الدراسي، حتى أثناء الحصة نفسها؛ فالمعلمة قد تطلب من الطلبة أن يغيروا أماكنهم أثناء

الحصة ليكونوا مجموعات لحل التمارين، لكسر رتابة الحصة ٩. وموعد انتهاء الدوام الحكومي الساعة الخامسة مساءً، ورأيت دكتوراً جامعياً يخرج لعمله قبل شروق الشمس ويرجع إلى بيته في حدود العاشرة مساءً، سعيداً بعمله، ويحدثني عن ذلك فيقول إن ما يسعده أنه يستغل وقته بشكل جيد، ويقول لي إنه يتحمل مشاق العمل لأنه يكثّر من دعاء «اللهم عافني في بدني».

سائق التاكسي

على عكس السائقين المصريين المتمرسين الذي يحمل الواحد منهم خريطة تفصيلية في ذهنه لتفاصيل الشوارع، تجد السائق في كوالامبور يفتح تليفونه المحمول ليستعين ببرنامج «google earth» ليحدد الموقع على الخريطة، وتراه مشغولاً بمتابعة اللوحات الإرشادية على جانب الطريق، ولا يمكن أن يتوقف ليسأل أحد زملائه السائقين مثلاً أو أحد المارة، إذا لم يستطع الوصول للمكان.

٩ فتذكرت إحدى البلدان التي ينتهي اليوم الدراسي بها في الظهيرة ومع ذلك لا يستطيع الطلبة البقاء في المدرسة طوال هذا الوقت فيحاولون الهرب، برغم جهود إدارة المدرسة في توعية وتحصين الأسوار ووضع الأسلاك الشائكة أو قطع الزجاج المكسر فوقها لمنع الطلبة من الهرب، ومع ذلك ينجح المساجين-عفاً أقصد الطلبة في الهرب- بعد العثور على ثغرة في الأسوار.

وركبت مع سائق تاكسي ذات مرة، فلم يشغل العداد فلما أوصلني إلى مقصدي سألته عن الأجرة قال: «٤٠» رنجت، فظننت أنه أخطأ وسألته: هل تقصد «١٤»؟، قال: «٤٠»، فتعجبت من ارتفاع الأجرة وبعد الفصال لم يرض بأقل من ٣٤ رنجت!!، فلما حكيت ذلك لأهل البلاد، فسروا لي ذلك بأن السائق اعتقد من ملاحي العربية أنني أحد السياح الأثرياء من دول الخليج، وطمع في أربعة أضعاف الأجرة المعتادة، فباعتهاري من أثرياء الخليج لن أناقش سائق التاكسي في مبلغ تافه كهذا المبلغ، فأهل البلاد يحملون الأثرياء العرب جزءاً من مسئولية غلاء أسعار الأراضي والعقارات، فهم ينفقون الأموال بلا حساب، ومن المعتاد أن يعطى الواحد منهم لنادل المطعم ١٠٠ رنجت على سبيل «البقشيش».

وفي مدرسة أخرى في ولاية بعيدة، دخلتها وقت صلاة الظهر فصليت في مسجد المدرسة وتحدثت مع بعض الطلبة بعد الصلاة لأفاجأ باثنين من المعلمين اليمينين جاءا التحيتي من بعيد ودعوني للجلوس معهم، ثم أعقبهما معلم مصري «بلدياتي» جاء فرحب بي ودعاني للغداء أنا وشابين ماليزيين كانا يرافقاني في تنقلاتي.

وكان الرجل رئيساً لقسم اللغة العربية بالمدرسة، وهو أزهري

عمل إمامًا بالأوقاف في مصر، وبصراحة استفدت منه بشكل كبير فقد أطلعني على خبراته طوال عشر سنوات قضاها في البلاد، حتى أنه تطبع بطباعهم، وشكالي أنه عندما يعود إلى مصر يستغرب الناس من هدوء طباعه، حتى زوجته نفسها تتعجب وتغضب من شدة صبره على ضوضاء أبنائهم فلا ينهرهم ولا يضربهم.

وحدثني أنه بكى مرة في أول قدومه للبلد من شدة تأثره، عندما رأى تعامل الشرطة شديد اللطف مع المواطنين وكأنهم أصدقاءهم، حتى المخطئين منهم، وتحسر على حال بلاد أخرى يرتعد المواطن خوفًا من الشرطة حتى لو لم يرتكب أى جريمة، وحكالي أنه اصطحب مرة صديقًا مصريًا على «موتوسيكل» ولم يرتدي صديقه خوذة على رأسه، فأوقفتهم الشرطة فاعتذر بأنه جاء حديثًا ولا يعرف القوانين، فغفوا عنه بشرط أن يذهب صاحبه بالموتوسيكل ويتركه معهم في نقطة الشرطة ليحضر له خوذة حرصًا على سلامته، فليس معهودًا عندهم أن تخاطر بحياتك وتركب موتوسيكل بلا خوذة، لأنهم طبعًا لا تدرك عقولهم وأفهامهم أنه في مصر المحروسة باستطاعة صديقنا هذا أن يأخذ أسرته بكاملها (زوجته وأبنائه الأربعة) خلفه على الموتوسيكل ويمر بهم في طرق تعج بالمرتفعات والمنخفضات وليس على رؤوسهم شئ اللهم إلا حجاب زوجته.

لغة الجسد

لغة الاشارات مختلفة تمامًا هنا، فبجانب أن هناك لغة إشارات ماليزية خاصة للصم البكم تختلف عن لغة الاشارات للصم البكم العرب، لكن الأمر هو نفسه أيضًا للأصحاء، فلو وضعت يدك على رأس الماليزي على سبيل المداعبة يغضب بينما لا يغضب إن وضعتها على قفاه مثلاً!، وعندهما تجلس وتضع «رجل على رجل» فهذا بالنسبة لهم شيء عادي بالرغم أنه في العالم العربي يشير لعدم احترام الشخص الجالس أمامك.

وهم يكتفون بالمصافحة فقط بدون المعانقة حتى في الأعياد والمناسبات، وهذا سلوك إسلامي في الأساس ١٠.

لكن بالطبع هناك جزء من العادات والتقاليد ليس للدين علاقة بها؛ فعلى عكس العرب بنسبة ١٨٠ درجة، قد تقابل امرأة ليس بينك وبينهما سابق معرفة، فتطلب منها رقم تليفونها أو تدعوها للغداء في مطعم فتوافق دون أن يعني ذلك أنها صارت تهيم بك عشقًا وغمًا، بل كل ما في الأمر أن ذلك

١٠. عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (قَالَ رَجُلٌ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخَاهُ أَوْ صَدِيقَهُ أَيْتَحِي لَهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : أَيْتَلْتَرُمُهُ وَيُقْبَلُهُ ؟ قَالَ : لَا . قَالَ : أَيْتَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصَافِحُهُ ؟ قَالَ : تَعَمْ) والحديث حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي برقم (2728)

في عرفهم شئ عادي، وربما حتى لا تصافح هذا الشخص مجرد مصافحة باليد.

لكن عندما يأتين إلى مصر للدراسة يتم التنبيه عليهن بالتقليل من هذا الانفتاح الزائد وبعضهن يرتدين النقاب عند السفر إلى مصر من باب الصيانة والستر.

وليس من الشائع أن تجد مسلمة كاشفة شعر رأسها، فالسيدات اللاتي يلبسن البنطلونات الضيقة، وتشيرتات بنصف كم، ويقدن «الموتوسيكلات» لا يمكن أن يكشفن شعرهن، فالحجاب تقريباً مرادف للإسلام.

ولا يعرف هذا الشعب ظاهرة التحرش بالرغم من أن الصينيات يرتدين «شورتات» قصيرة وملابس تكشف أكثر مما تستر لكن لا أحد يتعرض لهن ولو بنظرة خادشة.

والاختلاط بين الجنسين جزء من الثقافة الماليزية، والخطاب الديني لا يركز على هذه الموضوعات.

الكبير كبير

لدى الشعب الماليزي وشعوب جنوب في شرق آسيا بصفة عامة قيمة احترام الكبير بشكل كبير، فالرئيس يحظى باحترام المواطنين، والدولة تبادل المواطن هذا الاحترام والتقدير وترعى مصالحه، فليست مواد القانون والدستور وحدها التي تحكم العلاقة بين الحاكم والمحكوم بل الحق الأدبي والأبوي للرئيس.

وليس هذا في حق الحاكم فقط بل كل كبير، سواء كان أباً أو معلماً أو شيخاً، فبعد صلاة الجمعة تجدد عددًا من المصلين قد اصطفوا المصافحة الخطيب وتقبيل يده عرفاناً بفضلهم عليهم.

وهذه صفة متأصلة في الثقافة الماليزية، فعندهم قصة شعبية مشهورة تمجد الإخلاص للسلطان عن أشهر بطل مغوار في تاريخهم، اسمه «هانتوا» كان مقاتلاً شجاعاً وقويًا ومع ذلك كان في غاية الإخلاص للسلطان، فقربه إليه وعلت مكانته عنده لذلك، مما أوغر صدور الحاسدين الذين أوقعوا بينه وبين هانتوا وخوفوه من نيته الانقلاب عليه، فأمر السلطان بقتله، فأخذه أحد رجال الملك إلى بستان بعيد وطلب منه الاختفاء عن الأعين، وأوهم السلطان أنه قتله، فلما علم أصدقاء هانتوا بقتله، ثار غضبهم وهجموا على القصر وكان

يقودهم المقاتل «هانجبات» الذي لم يكن في المملكة محارب في مثل قوته وبأسه إلا هانتوا، وأعلن هانجبات خلع طاعة السلطان لأنه ظالم، فهرب السلطان من قصره، وتحسر على قتل هانتوا المخلص، فأخبروه أنه مازال حيًا فأمر بإحضاره، فلما جاء إليه أمره بقتال الفرسان الذين خرجوا عليه، فامثل هانتوا لأمر السلطان وذهب للقصر وقتل هانجبات لأنه خان السلطان، فلما سقط صديقه صريعًا في دمه، حمله هانتوا بين ذراعيه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة فطلب منه رعاية طفله الصغير فطمأنه هانتوا بأنه سيكون في رعايته.



هانتوا يقتل صديقه هانجبات

فناقشت أحد الشباب الماليزي في هذه القصة متعجباً من تمجيدهم لقاتل صديقه الحميم، فقال لي إن ما فعله هانتوا واجب إسلامي فالإسلام يمنع الخروج على السلطان.

وبرغم صحة كلام صديقي الماليزي فقهياً إلا أن للقضية جذوراً أعمق، فابن بطوطة عندما تجول في أرجاء تلك المنطقة في الوقت الذي كان الإسلام بدأ في الانتشار بين أهلها رويداً رويداً كان معظم سكان شبه جزيرة الملايو مازالوا وثنيين، فزار ابن بطوطة منطقة سماها «مل جاوة» هي على أرجح الأقوال شبه جزيرة الملايو، ويحكي أنه زار سلطانها فوجده جالساً على الأرض فرحب به وأمر أن يفرش له ثوب يقعد عليه فسأل ابن بطوطة المترجم «كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال: هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعاً وأنت ضيف.. ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلاً بيده سكين شبه سكين المسفر قد وضعه على رقبة نفسه فوق رأسه لحدة السكين وشدة إمساكه بالأرض فعجبت من شأنه وقال لي السلطان: أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له: ما رأيت هذا قط! فضحك وقال: هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا!! وأمر به فرفع وأحرق وخرج لإحراقه النواب وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأجرى الرزق الواسع على أولاده وإخوانه وعظموا لأجل فعله، وأخبرني من كان جالساً بذلك المجلس

أن الكلام الذي تكلم به كان تقريراً لمحبتة في السلطان وأنه يقتل نفسه في حبه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه وجده قتل نفسه في حب جده» ١١.

فثقافة احترام الكبير وتقديره وحفظ مكانته وطاعته في المنشط والمكره سمة واضحة لديهم، تظهر في تأديهم الشديد مع معلمهم وشيوخهم ووالديهم والأكبر سنًا منهم، والمرأة تحترم الرجل وتوفيه حقه من التبجيل والاحترام، مع التذكير بأن هناك فروقاً فردية بين شخص وآخر وظروف وأخرى إلا أنها في المجمال سمة غالبية في شعوب هذه المنطقة على وجه العموم.

حاسب نفسك بنفسك

الأمانة صفة شائعة في المجتمع الماليزي، ولقد رأيت مشهداً لا يمكن اعتباره حالة فردية ولا يمكن أن يوجد إلا في مجتمع يتحلى أهله بالأمانة، فقد وجدت عددًا من زجاجات المياه معلقة على حامل ليس بجواره أحد وبه حصالة نقود والمفترض أن يأخذ المشتري الزجاجاة من على أرفف الحامل ويضع ثمنها في الحصالة بنفسه، إذ ليس عليه رقيب إلا الله.



حاسب نفسك بنفسك

التعايش مع الطبيعة

وكنّت في جامعة الملايا في كوالالامبور، وهي من أعرق الجامعات الماليزية ففوجئت أنها ملاصقة تمامًا للغابة الاستوائية الكثيفة، وكنّت أرى القروء تأتي من الغابة لتبحث عن طعامها فتتقافز على فروع الأشجار وتتجول في مبنى سكن الطالبات للبحث عن طعامها، والطالبات يطلقن الضحكات والصيحات، ومرة رأيت الطالبات تجمعن لمشاهدة قرءة تحمل رضيعها والطالبات يضحكن ويقولون «بيبي بيبي».

ولكن الغابات الاستوائية بقدر ما تبدو جميلة بالنهار تبدو مخيفة بالليل ويغمرك إحساس بالرهبة حال اقتربت منها وحاولت التوغل فيها وحدك.

وقد قابلت طالبًا في إحدى المدارس يحمل قطة في حقييته المدرسية، وفي مدرسة حكومية عامة، إذا بها يتوسطها حوض أسماك ملونة كبير، مبني بالحجارة قطره حوالي مترين، فتجد طالبة قد أقبلت نحو الحوض وجثت بركبتها لتقدم الطعام للسلاحف الصغيرة والسمك الذي يسارع بالتقاطه من يديها، ولا يوجد بالمدرسة طالب مشاغب واحد حاول أن يفسد هذه اللوحة الجميلة.



طالبة تطعم الأسماك الملونة في حوض المدرسة

مدينة القطة

قبل مغادرتي لمصر وبدء رحلتي، شاهدت فيديو على «youtube» يظهر قطة تنام على حافة رصيف في شارع مزدحم بكوالالامبور والمارة يتخطونها بأقدامهم وهى لا تخاف منهم ولا تأبه لهم، وعندما سافرت رأيت هذا المشهد على سلم السكن الذي كنت أقيم فيه إذ كان الناس يصعدون ويهبطون على السلم وهناك قطة مستلقية على ظهرها في منتهى الأمان، وربما يداعبها بعضهم بيده فلا تخاف كأنها قطة منزلية يداعبها صاحبها، فلا يتعرض أحد لأي حيوان بسوء في ماليزيا لا سيما القطط، فعاصمة ولاية ساراواك تسمى «كوتشنج» أي

«مدينة القطه» لاحتوائها على سلالة مميزة من القطط، وتعج المدينة بتماثيلها.

المس كلبًا

لكن هناك استثناء من هذا اللطف مع الحيوانات فالكلب باعتباره حيوانًا نجس اللعاب في الشريعة الإسلامية، ينفر منه الملايو ويحتقرونه وهذا من تأثير المذهب الشافعي فيهم، لكن حتى الكلب لا يؤذيه أحد.

وأطلق أحد المواطنين المسلمين مبادرة بعنوان «المس كلبًا» من أجل إزالة الحاجز النفسي لدى الملاويين بالنسبة للكلاب، لأنه تألم عندما رأى مسنًا صينيًا ضريراً يصطحب كلبًا، يحاول سؤال المارة عن مكان ما، ولكن لم يرد عليه أحد بسبب اشمئزازهم من الكلب، فنظم هذا الناشط مبادرة بهدف تعويد الملايو على حب الكلاب، ولكن المبادرة فشلت والرجل اعتذر بعدما واجه انتقادات واسعة.

السنباب الخجول

بينما أتناول الغداء في مطعم إحدى المدارس تلبية لدعوة إحدى المعلمات، رأيت سنبابًا يتنقل على فروع الأشجار في حديقة المدرسة فقالوا لي هذا شيء عادي فهو كائن لطيف

ونخجول يتغذى على الفواكه ولا يؤذي البشر.

فقد يقابلك في شوارع العاصمة سنجاب يجري في المجرى الصغير على جانب الطريق، إذ أن الشوارع مصممة بحيث تتحمل أي كمية من المطر فعلى جانبي الشوارع يوجد مجرى مائي صغير، وترتبط كل هذه المجاري المائية بشبكة تصريف تجمع المياه لتصب في قنوات مائية كبيرة تضيء على المشهد لمسة جمالية؛ لذلك فالأمطار الاستوائية الغزيرة بمجرد أن تقف تعود الحياة لطبيعتها، وهناك شبكة ضخمة من المظلات ممتدة على الأرصفة كي يمر من تحتها المشاة حتى في أشد حالات هطول الأمطار الغزيرة.

وتعيش في الغابات الاستوائية حيوانات غير مألوفة كالقرد أبو زلومة والأسد الأبيض، وقد تنظم بعض المدارس لطلابها رحلة إلى الغابات ولكن مع الالتزام بالاحتياطات والحذر وارتداء ملابس مناسبة، وتعيش في بعض الغابات المفتوحة حيوانات متوحشة كالنمور لكنها لا تهاجم البشر، وكذلك ثعابين الكوبرا.

سيالات

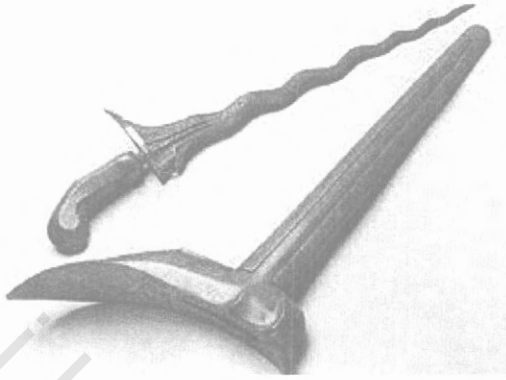
ورغم الطبيعة الهادئة للشعب الماليزي إلا أنه ابتكر رياضة تعد من أشرس وأعنف الرياضات القتالية بل توصف بأنها أشرسها على الإطلاق، إذ تجعل رياضة السيالات متعلمها قادرًا على الفتك بخصمه وتحطيمه بأدنى مجهود وبأسرع وقت.

وتتفرع رياضة السيالات إلى عدة مدارس -مثل الكاراتيه- وهناك مراتب وأحزمة تبدأ من الحزام الأبيض وحتى الحزام الأسود، وهى تجمع بين حركات قتالية من الكونغ فو والكاراتيه وغيرها، ولها حركاتها الخاصة المستوحاة من التكتيكات الهجومية للحيوانات المفترسة، وبعض الحركات تستخدم فيها أسلحة خفيفة بمهارة فائقة، وبعضها لا تستخدم فيها إلا جسدك، وتحتاج لأعلى درجات الرشاقة والشجاعة، وتتضمن تدريبات مرعبة ومؤلمة لاختبار قوة التحمل ورباطة الجأش.

ويوجد في مصر اتحاد لرياضة السيالات، إلا أنها غير مشهورة في الدول العربية رغم ما يشاع عن أن البحارة العرب هم من علموها لسكان أرخبيل الملايو، ورغم ارتباطها بالدين الإسلامي، إذ يشترط في إحدى مدارس السيالات أن يكون اللاعب قارئًا للقرآن الكريم، كشرط للقبول.



ويتدرب اللاعبون في معسكرات تدريب السيالات وسط الغابات الاستوائية وفي نوادي المدن؛ ويقال إن أصل الاهتمام بهذا الفن القتالي كان من أجل الجهاد ضد الاستعمار الهولندي الذي كان متفوقاً في العدة والعتاد على المسلمين أصحاب البلاد، وكلمة سيالات مشهور أنها تحوير للكلمة العربية «صلات» ويقصد بها الصلة بالله القوي المتين الذي يحفظ المؤمنين.



الخنجر الماليزي كريس kris من أشهر أسلحة السيالات وله مكانة خاصة في التراث الماليزي

وتنتشر السيالات أيضًا بين الإندونيسيين ومسلمي جنوب تايلاند، وهناك خلاف حول أصل اللعبة هل هو إندونيسي أم ماليزي ولكنه جزء مشترك في تراث البلدين، ومن أشهر رموزه التاريخية «هانتوا» و«هانجبات» السالف ذكرهما.

فالسيلات رياضة إسلامية الأصل، والعلاقة بين الرياضات القتالية والأديان ليست شيئاً مستغرباً، فلـ«كونغ فو» مثلاً أصول بوذية وطاوية وكان يتم تعليمه في المعابد على يد الرهبان كجزء من الطقوس الدينية، حتى إن الحكم الشيوعي في الصين حظر رياضة الكونغ فو لارتباطها بالأديان البوذية والطاوية؛ لأن الشيوعية تعادي كل الأديان، ثم صنع منه نسخة معدلة

تسمى «الوشو» لتتفق مع الشيوعية حسب اعتقادهم! كما أن هناك ما يسمى بـ«الكونغ فو الإسلامي» بين مسلمي الصين من قومية «هوي» وهو ينقسم أيضاً لعدة مدارس، وللمدربين المسلمين دور بارز في تطوير لعبة الـ«كونغ فو» في الصين.